موت الإنسان في الفلسفة الغربية الحديثة : من نيتشة إلى فوكو

قراءة في نماذج

عبد اللطيف قادم
جامعة سوق أهراس

Resume

Les historiens des idées nous rapporte que l'égocentrisme de l'homme avait connu trois humiliations , la première : cosmologique relative à l'astronomie avec Copernic us , la deuxième humiliation avec Charles Darwin en biologie, la troisième fut L œuvre de Sigmund Freud dans le domaine de la psychologie . tous ces pré cites ont reconnu a délègue la centralisation de l'homme et à le tuer, le structuralisme de l'école française a suivi le même chemin (Althusser, Lévi-Strauss, Jacques Lacan, Michel Foucault,) et c'est ainsi que l'homme s'enfuit de Sa réalité vers le nihilisme et perd l'envi de vivre pour déclarer sa mort et son suicide . c'est ainsi que l'occident nous fait montrer son vrai visage ou l'homme fut le grand perdant.

Notre article penche sur les grands moments de cette idée philosophique dans la pensée occidentale.

الملخّص:

يرى مؤرخو الأفكار أن مركزية الإنسان تعرضت إلى إهانات ثلاث : الأولى كوسمولوجية : في علم الفلك عند كوبرنيك ، والإهانة الثانية : مع تشارلز داروين في مجال علم البيولوجيا وعلم الأحياء ، أماالإهانة الثالثة فكانت على يد مكتشف اللاشعور سيجموند فرويد في مجال علم النفس ، حيث سعت كل هذه الأسماء إلى تقويض نرجسية الإنسان و قتله ، وقد سارت البنيوية وأشياعها من المدرسة الفرنسية على الدرب نفسه من أمثال لوي ألتوسير ، ليفي ستروس ، جاك لاكان ، و ميشال فوكو و بهذا يهرب الإنسان من واقعه ليقع في حبال و شراك العدمية ، ويفقد الرغبة في الحياة ، و في الأخير يعلن موته وانتحاره ، و هكذا يكشف العالم الغربي عن وجهه الحقيقي ، حيث يكون الخاسر الأكبر هو الإنسان .ويهدف هذا المقال إلى تتبع تبلور هذه الفكرة الفلسفية و أبرز محطاتها في الفكر الغربي.

مقدمة:

حرصت الفلسفة على البحث والتفكير في قضايا لها صلة بالوجود الإنساني الخاص والعام على حد سواء، حيث اتجهت نحو إيجاد حلول ومخرجات للقضايا العالقة والخلافية فالفلسفة إذن هي الطريق أو المسلك الذي لابد من إتباعه من أجل معرفة المشكلات التي شغلت الفلاسفة. "هذا الإنسان الذي كان:«يسكن ويتمركز في الطبيعة عن طريق ما يسمى بالطبيعة الجهوية المحدودة»[1] التي زود بها أثناء ولادته كما هو الشأن بالنسبة لكل الكائنات الأخرى. إذن الإنسان بوصفه ذاتا وموضوعا لكل معرفة ممكنة لم يظهر إلا في مطلع القرن التاسع عشر، وكان هذا بحد ذاته من أكبر الثورات التي زعزعت أركان الثقافة الغربية، وكان سبب ظهوره هو «ذلك التصدع الذي حدث في تنظيم المعرفة، والذي يسر لمفكري القرن التاسع عشر مهمة تعقل الإنسان أي اعتباره ذاتا وموضوعا عوضا عن اعتباره طبيعة بشرية فحسب.»[2]

إلا أن هذه المعرفة التي عرفها القرن التاسع عشر هي نفسها التي "تقضي على هذا الإنسان وبالتالي فالموت والفناء هما مصيره المحتوم،« ولذا تعتبر هذه الفكرة (موت الإنسان) مشكلة نشأت في كنف الفكر الفلسفي الغربي الذي يقوم على هدم ونقض كل المركزيات، ولأنه ليس هناك أدنى شك في أن هذه الإشكالية الفكرية التي دعا إليها الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو .M Foulcaut هي فكرة لطالما أرقت البشرية ولعل هذه الحيرة في حد ذاتها عامل مهم من عوامل شحن الذهن ودفعه إلى طرح تساؤلات للكشف عن هذه المشكلة المتعلقة بالإنسان الذي يؤكد ميشال فوكو "أن هذا الكائن لم يكن موجودا قبل نهاية القرن الثامن عشر، بل إن هذا الإنسان قد صنعته المعرفة الجديدة المختلفة اللغوية الاقتصادية، البيولوجية»[3]، فالإنسان كونه أداة معرفية أزاحت عن العلوم غشاء القداسة وأصبح عرضة للتحليل والتشريح، وأصبح يوصف بالجنسية كما يوصف بالنطق وهو المقصود في المعنى، أي إنسان الفلاسفة ليس الإنسان كما هو في الواقع خاصة إذا علمنا أن هذا الإنسان كان في القديم هو مركز الأشياء وجوهرها.

فالإنسان في هذا العصر لم يعد ينظر إليه كونه أقدم مشكلة في تاريخ الفلاسفة، حيث أصبح لا يساوي شيئا في أحسن الأحوال أما في معظمها فالإنسان لا وجود له أصلا، فلا هو معنى موثوق به، ولا شيء مقدس، ولا وجود لذلك الإنسان المتعالي والمتسامي، ولا شيء سوى التعدد والاختلاف، واللعب الحر بالمدلولات، والدلالة اللانهائية، وتكسير الوحدة والتشرذم بمعنى كلمة الفوضى والعدم.

لقد كانت فلسفة موت الإنسان التي تعد نتيجة حتمية لموت الإله الذي دعت القبلانية إلى عزله واقترحت المملكة اليهودية بديلا عنه، وفلسفة عزل الإله في الفلسفة القبلانية هي«منطق مهم في بلورة الأحكام والقضايا المتعلقة بمسيرة التصوف وبنتائج نظرية التكوين والخلق»[4] التي لم تكتمل بعد حسب الرؤية القبلانية وهذا ما استثمرته المناهج ما بعد البنيوية لا سيما في مقولات وثنائية الحضور والغياب.

إن أصدق وصف يمكن أن توصف به البشرية وصفا يليق بحالها هو الحيرة والقلق التي غلبت عن سمات هذا العصر، فبعد أن «عرفت قرونا من الغرور والوهم والادعاء وجربت شتى النظريات والفلسفات تيقنت أنها تسير مهرولة نحو حتفها وزوالها وفنائها، وتستعجل عنوة دمارها وتأكدت أن لا شيء من محاولاتها اليائسة يستطيع اجتثاثها من براثين الشقاء والهلاك والدمار»[5] هذا المصير المحتوم الذي تحالفت عدة مناهج وتيارات للقضاء على هذا الإنسان، كالبنيوية التي أعلنت صراحة على لسان روادها وموت هذا الكائن، فهل كانت البنيوية فعلا هي من أهدرت دم هذا الإنسان، وما هي الوسائل والمسوغات التي استعملتها لبلوغ ذلك؟ وللإجابة على هذه التساؤلات كان حريا الولوج إلى هذه الإشكالية من باب الإبستيمولوجي للوقوف على حقيقة هذه القضية والغوص إلى جوهرها.

والهدف من هذه الدراسة هو إبراز المكانة التي تحتلها هذه الفكرة ضمن المشروع الفلسفي والنقدي المعاصر، وما أحدثته من تحول جذري على أكثر من صعيد (سياسي اقتصادي، ثقافي وفكري).

1- فكر النهضة و التأسيس لمقولة موت الإنسان:

لقد عرفت الإنسانية عموما والغرب خصوصا تحولات كبيرة نتيجة للتغيرات الفكرية العميقة التي استبدلت أسس ومبادئ الوعي القديم بمبادئ وأسس جديدة قامت ولا تزال تقوم عليها الحضارة الغربية الحديثة[6]، وقد كانت هذه التغيرات الفكرية عميقة جدا، حيث استطاعت أن تنقل الحضارة الغربية، ومن بعدها الإنسانية نقلة نوعية كبيرة، وشكلت سابقة تاريخية لا مثيل لها، و لم يقتصر تأثير هذه الحضارة على الغرب فحسب بل تعداه إلى العالم بأسره، هذه الحضارة الغربية التي تقوم على مبدأ «المركزيات، مركزية الإله التي تقوضت دعائمها وعزل فيها الإله من قبل القبلانية كما أسلفنا، ثم ما لبث هذا الإله أن قتل مرة ثانية قبل مئة عام على يد الفيلسوف الألماني فريديريك نيتشه (1844 - 1900) Nietzsche Friedrich الذي أعلن ذات مرة بأنه "لا يمكنه أن يجعل من الإله ضامنا له من زيغ الشيطان»[7] كما يقول رينيه ديكارت (1596 – 1650) René *Descartes* وباختصار شديد فقد قتل كل من الإله والإنسان معا، يقول ميشيل فوكو الذي كان متأثرا بأفكار نيتشه: «في أيامنا هذه، لا يزال نيتشه يمثل من بعيد نقطة الانعطاف في فكرنا، فقد أكد ليس على موت الإله فحسب، بل على نهاية الإنسان أو موت الإنسان أيضا... حيث يظهر أن موت الإله هو موت آخر إنسان في هذا العالم مرتبطان ببعضهما»[8] فالمعرفة التي ظهر بها الإنسان خلال القرن التاسع عشر هي التي ستقضي عليه، فهو كلما تفرق في العلوم فقد قيمته وهويته، وبالتالي فالموت والفناء هما مصيره المحتوم، فالإنسان المعاصر على وشك الإمحاء والضمور، وعلى وشك الموت إن لم يكن قد مات فعلا، «ذلك أن المجتمع المعاصر قوض دعائم الإنسان بمتطلباته القاسية التي تجعله خاضعا لها، إذ يموت هذا الإنسان في اليوم مرات عديدة، إلى جانب هذه المتطلبات هناك مؤسسة قوية قد ظهرت في المجتمع المعاصر وهي اللغة»[9] فإذا كانت اللغة تلح على الظهور كوحدة تعذر علينا كينونتها كلما لاحت في الأفق، وهذا دليل كاف على تقويض دعائم النظام بأكمله، والذي ينجر عنه تقويض الإنسان الذي سيؤول لا محالة إلى الفناء والزوال كلما لاحت اللغة في الأفق وتجمعت.[10]

لقد ولد الفكر الغربي في عصر الشكل الكامل، الذي يسعى إلى هدم كل المركزيات بداية بمركزية الإله وصولا إلى مركزية الإنسان، فأصبح الإنسان لا يساوي شيئا في أحسن الأحوال أما في معظمها فالإنسان لا وجود له أصلا.

إلا أن بشائر عصر النهضة ظهرت في القرن الخامس عشر ميلادي محملة بدعوات بحث وإحياء، نجمت عنه عدة عوامل سياسية، اقتصادية وفكرية شرعت في زعزعة الإقطاع الذي تعود إليه دفة قيادة الاقتصاد في المجتمع الزراعي، حيث وجدت الكنيسة في هذا الإقطاع خير سند لها، ومن هذا التحالف الذي نشأ بين الكنيسة والإقطاع أخذ المجتمع دوره في الحياة، إذ يستند أساسا إلى إلغاء الإنسان، وجعله موضوعا من الموضوعات، أو شيئا من الأشياء، التي كان يمثلها ذلك التحالف.[11] وكانت الكنيسة تعتمد على الإقطاع في جانبه المادي لتلعب دورا بارزا في الصراعات السياسية والاجتماعية ضد الأمراء والملوك، والإقطاع كان يعتمد على الكنيسة في جانبها الروحي لإخضاع الفلاحين لنمط اقتصادي لخدمة مصالح الكنيسة، وبذلك أصبح الإنسان يعيش في عالم لا يملك فيه أي شيء، ولا يعرف من هو، وما هو دوره في هذه الحياة؟ والعقل لم يسمح له بالتعبير ما دام الإرهاب الذي تمارسه الكنيسة تحت دعوة حماية العقل من الزندقة والانحراف، كما أن العلم كان حكرا على رجال الدين ومفسريه الذين جعلوا من اللاهوت علما للعلوم[12] وكانت الطبقة الارستقراطية تحتكر كل شيء مادامت هي الذات والآخر هو الموضوع، أو هو السيد والآخر هو العبد، فكانت العلاقة بين السيد والعبد هي الأساس الاجتماعي الذي يتحكم في الآخرين،دون حراك اجتماعي.

إلا أنه ومع ظهور جيل جديد من المفكرين والمثقفين تحت زعامة الألماني مارتن لوثر .Martin L، الذي شن هجوما على الكنيسة الكاثوليكية بوصفها مؤسسة سلطوية دينية وسياسية، هذه الفترة التي كانت حقيقة بداية لقهر الإنسان والفكر من قبل الكنيسة، التي كانت تصادر كل ما يتصل بالتفكير العلمي جاعلة من الأساطير والخرافات أساس التفكير والمصدر الذي يجب اتباعه في تفسير الحقائق، ومن بين أولئك الذين ساهموا في رسم ملامح هذه الفترة كوبرنيك

Copernic، تشارلز داروين .Charles Darwin، سيجموند فرويد S. Freud ، كارل ماركس K. Marx، فريدريك نيتشه N. Frédéric، ومع هؤلاء عرفت الإنسانية والإنسان معا عدة إذلالات سحقت كينونته ووجوده، وعرف أيضا جروحا مست كبرياءه وعلوه يمكن حصرها في:

1. **الإهانة الأولى**: كوسمولوجية، وذلك مع عالم الفلك كوبرنيك حيث« أثبت أن الأرض ليست مركزا للكون، بل إنها لا تمثل سوى جزئية زهيدة من مدار الشمس» [13]،فكوبرنيك قوض مركزية الأرض التي قال بها بطليموس، وتبنتها الكنيسة، وهذا التقويض أيضا للإنسان، ومن هنا يكون الإنسان وكوكبه لا يمثلان سوى نقطة متناهية الصغر في بحر المجرات والأفلاك التي لا قرار لها.[14] وها هو ذا العالم الإنساني يفقد على حين بغتة مركزه نتيجة اكتشاف كوبرنيك الذي«فجر الدوائر البلورية التي كانت تحبس الإنسان والأرض في شرنقة باعثة على الاطمئنان»[15] وهكذا أصبح الإنسان عديم الشأن هو وكوكبه مقارنة مع باقي الكواكب.

كما يعد كل من فرنسيس بيكون (1561 - 1626) Francis Bacon، غاليلو، جون لوك .Jean L (1632 - 1704)، ودافيد هيوم David Hume (1711 - 1772) الذين ارتبط أسماؤهم بالفلسفة الكنسية وترهاتها، القائمة على التفسير الأسطوري اللاهوتي للطبيعة، حيث أصبحت الطبيعة كتابا مفتوحا يحل محل الكتاب المقدس، و غدت الطبيعة أشكالا هندسية وحسابية ترتبط عناصرها الجزئية عبر علاقات بينها، لا تخضع لتراتيب أنطولوجية كما كانت في الفكر القديم والوسطي، فالمكان عبارة عن نقاط متجانسة مما مهد للتصور الرياضي الميكانيكي للطبيعة.[16]

أما غاليلو فيعده الباحثون الشخصية الرئيسة في مسرح الثورة العلمية، إذ استطاع بنقده لمن سبقه أن يصل إلى تطوير العلم التجريبي نافيا أن يكون المنطق الأرسطي أداة صالحة للكشف العلمي، لأنه منطق قياسي يبني صحة النتائج انطلاقا من صدق الفروض في المقدمات، وهذا ما يجعل العلم التجريبي ممهدا للدراسات النقدية الموضوعية (البنيوية)،حيث ركز غاليلو على العلاقات

الداخلية للجزئيات المكونة للمادة، وأبعد الفرضيات والتعميمات، ومن هنا يثبت أن الإنسان خادم للطبيعة ومفسر لها وخاضع لنظامها، وخدمة الإنسان للطبيعة يكون تمهيدا للمنظور البنيوي: «الذي جعل الإنسان حبيس النسق اللغوي بالرغم من أن الإنسان سيد على الطبيعة لا خادم لها بالمنظور العلمي التجريبي»[17] وهذا ما يعتبر أول إعلان لموت الإنسان الذي ظهر واضحا مع نيتشه، عندما أعلن موت الإله ومع فوكو وبارت اللذين أعلنا موت الإنسان وموت المؤلف.

2. **الإهانة الثانية:** حدثت في مجال البيولوجيا مع تشارلز داروين Charles Darwin في كتابه أصل الأنواع، حيث وصف الإنسان بالقردية، وأرجعه إلى أصول حيوانية، وبهذا تكون الداروينية الأساس الثاني في تقويض مركزية الإنسان، حيث أثبتت انتماءه إلى عالم الحيوان، عالم يحكمه الصراع من أجل البقاء (البقاء للأقوى، قانون الغاب).

3. **الإهانة الثالثة:** تلقى الإنسان صفعة أخرى مست كبرياءه، وكان ذلك على يد سيجموند فرويد بعد اكتشافه للاشعور، أي في مجال علم النفس، وهذا يعتبر ثالث إذلال لحق بالبشرية، بعد إذلال علم الفلك، والبيولوجيا (علم الأحياء)، حيث أعطت النظرية النفسية صورة عن الإنسان أصبحت نفسه محبوكة بخيوط قوة أو بأوتار صادرة عن مناطق بعيدة،وأزمنة سحيقة، أو مضمورة على نحو لا يقع تحت سيطرتنا ومهيئة في كل لحظة وآن للانحلال.

2- الفلاسفة الريبيون وأثرهم في تعميق المقولة:

هذا الاكتشاف في مجال الحياة النفسية هو «تأكيد على جبرية الحياة النفسية، في العقل والوعي والإرادة الحرة»[18]، إذ لم تعد تحدد أهمية الإنسان لا في كونه عاقلا، ولا في كونه ذاتا قاصدة وواعية متحكمة في نفسها وفي مواضيعها الخارجية بالمعنى الديكارتي: «أنا أفكر إذا أنا موجود،»[19] ولكن بوصفه كائنا حيا له حاجياته ورغباته المرتبطة به بدافع الغريزة والحاجيات الجسدية، حيث يكون هذا السلوك الإنساني يرتبط بدوائر اللاوعي أكثر من الوعي، وباللاشعور أكثر من الشعور، وباللاعقل أكثر من العقل.

أما الماركسية فقد قوضت فكرة الفردية والاستقلالية الذاتية، التي أكدت عليها كل من الوجودية والرومانسية، وأكدت مقابل ذلك على قيمة البنية والطبقة والطبقات الاجتماعية على حساب الفرد والوعي والإرادة الحرة، ومن هنا دعا كارل ماركس K. Marx إلى: «اغتراب الإنسان عن ناتج عمله الذي يعتبر في الوقت ذاته اغترابا عن نفسه وعن ذاته،»[20] لأن كارل ماركس ينظر إلى العمل في شكله الصحيح على أنه وسيط يستخدمه في تحقيق ذاته وتنمية لملكاته الإنسانية. والاغتراب عند ماركس يعني«أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاته كنشاط خلاق في العالم، بل أن العالم، الطبيعة والآخرين وهو نفسه، تصبح مغتربة بالنسبة إليه إنها تغلوه وتقف ضده كموضوعات غريبة على الرغم أنها تكون من خلقه.»[21] لذلك فالعمل المغترب:«يفصل الموضوع المنتج عن الإنسان، وكذلك يسلبه حياته النوعية، ويبدل أفضليته على الحيوان إلى انعدام تمايز، حيث إن جسده غير العضوي أي الطبيعي يسلب منه،»[22] وبالمثل فإن العمل المغترب بتحويله لنشاط الإنسان الذاتي التلقائي إلى وسيلة، فإنه بذلك يحول الحياة النوعية للإنسان إلى وسيلة للوجود المادي.

وتتمثل خطورة اغتراب العمل عند ماركس في أن الإنسان المغترب عن ناتج عمله هو في الوقت نفسه اغتراب عن الذات وعن البشر الآخرين في مجتمع مستلب لا تكون علاقة الناس فيما بينهم علاقة بين أشخاص متماثلين، بل علاقة خادم وسيد، ومستثمر بمستثمر شخص أدنى بشخص أسمى، وهكذا النظام التراتبي لمختلف المهن، فاغتراب العمل هو السلب الكامل للإنسانية، ونفي النفي إنما يأتي مع إلغاء العمل المغترب.

وهكذا يبرز الدور الحقيقي الذي لعبه الفلاسفة الريبيون في قتل الإنسان (كارل ماركس،فرويد، فريدريك نيتشه)، هذا الأخير الذي تدين له الفلسفة الحديثة بشكل كبير، وذلك من خلال تحليلاته الجينيالوجية، حيث وصفت فلسفته بالعبثية والعدمية، والفوضوية وأصبحت مع مرور الزمن تراثا فكريا يتجه إليه الجميع للاحتماء به في مواجهة العقل، حيث يقول ميشيل سيرس Michel Serre «إن العقل قاتل للأقليات منذ ولادته، وإن الخطاب في المنهج هو خطاب

حرب»[23] هذا الكلام إذا ما قورن بما قاله الفلاسفة الجدد من أمثال فوكو، ديريدا دولوز، اليوتار، فهو ضنين وشحيح، حيث يقول فرنسوا شاتيليه François Jean de Chastellux "الدعوة إلى العقل دعوة للخضوع"، كما يقول بيرنارد ليفي "المثال العلمي مثال بوليسي" ويقول أيضا «لقد أثبت ميشيل فوكو أن العقل أداة استعباد".[24]

وبناء على ذلك، نجد أن فلسفة نيتشه وجهت نقدا كبيرا وعنيفا للعقل الأنواري، والميراث الفلسفي الغربي برمته، ومقولاته عن المنطق والعقل والحقيقة، ومن ثم كان الإعلان عن موت الإله، وكان هذا الإعلان بمثابة: «كشف منذ ذلك الحين عن وحدة الإنسان، لأن القول بموت الإنسان يعدل القول بأن الإنسان وحيد في العالم.»[25] وبهذا يكون نيتشه قد ذهب إلى أبعد من ذلك، فما ينفيه هو وجود ما هو مغاير، في أي شكل كان.

إذن فقتل الإله لا يكفي لإنجاز عملية تغيير القيم، وإنما: «يطال النفي أيضا جميع القيم المسماة بالعليا،»[26] أي مجمل الأسباب التي أعطاها الإنسان لنفسه، لا منذ أيام المسيح فحسب، بل منذ أيام سقراط، كما يلقي عصا الطاعة، وبالتالي ازدواج العالم الذي جعل من الفلسفة تاريخ خضوع الإنسان.

لقد كان الإعلان عن موت الإله لحظة خطيرة في مسيرة الفلسفة الغربية التي أذنت لميلاد الإنسان المتفوق والخارق، حيث استطاع نيتشه أن ينزع الغلاف الأسطوري عن صورة الإنسان الأخلاقية والميتافيزيقية التي رسمتها الفاشية من الأكاذيب، والأضاليل، أكاذيب المذهب العقلاني الإغريقي، وأضاليل المذهب الصوفي اليهودي-المسيحي، التي رسمها عن الإنسان أسير الأساطير، الصانع لأوهام معيارية.[27]

وهكذا ستقود صرخة نيتشه موت الإله إلى نتيجة كانت حتمية وهي موت الإنسان وموت النزعة الإنسانية، وهكذا يمكن القول إن نبوءة نيتشه قد تحققت، وذلك بتجريد الواقع من قيمته ومعناه، وحيويته عن طريق اصطناع عام مثالي شيد بالأكاذيب، إذ لم يكن هذا الإنسان من أقدم المشكلات إطلاقا التي طرحت على المعرفة الإنسانية، ولا أكثرها ديمومة، بمعنى موت الإنسان.

ويثبت نيتشه أنه: "قد جرد الواقع من قيمته ومعناه وحيويته، عن طريق اصطناع عالم مثالي مشيد بالأكاذيب" وبهذا تكون بنود ميشال فوكو قد تحققت بقوله ليس الإنسان أقدم المشكلات التي انطرحت على المعرفة الإنسانية ولا أكثرها ديمومة بمعنى موت وفناء هذا الإنسان.

3- دور الفلسفة البنيوية وأثرها:

والمتأمل في خطابات هؤلاء النقاد والمفكرين يلحظ أنهم يلتفون حول نقطة مركزية واحدة: هي الهدم والتقويض: بمعنى الفوضى والعدم، فما هو الرابط بين نقد فلسفة الميتافيزيقا عند نيتشه Fridirich Netcheiz. ومارتن هايدجر M. Heidigger، وجاك دريدا J. Dirrida،وكذا الخطاب الأنتروبولوجي عند كلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss، الذي يلح على هويته العلمية، وبين أركولوجيا المعرفة والجينيالوجيا عند ميشال فوكو M. Foucault،هؤلاء فرسان البنيوية التي كانت سباقة إلى الدعوة إلى موت الإنسان، كونها كما يقول روجيه جارودي في كتابه البنيوية فلسفة موت الإنسان، إذ تعتبر من الروافد الأولى التي استقى منها هؤلاء الفلاسفة أفكارهم.

ولذا يجب أن نعرج على البنيوية كونها أول من دعا إلى موت الإنسان وإهدار دمه،على الرغم من أن المنهج البنيوي اللساني«منهج لغوي يقارب النصوص الأدبية مقاربة من الداخل تفكيكا وتركيبا، ويتعامل مع النص المعطى باعتباره بنية مغلقة في مستويات لسانية وصفية، تهدف بشكل من الأشكال إلى استكشاف البنيات المنطقية والقواعد العميقة، التي تتحكم في توليد النصوص والخطابات».[28]

إلا أن البنيوية «تهمل السياق الخارجي، وتقصي المبدع من حساباتها وتغض الطرف عن العوامل النفسية والاجتماعية والتاريخية، التي يكون لها دور من الأدوار البارزة في عملية الإبداع والتأثير، ومن هنا تقتل البنيوية الإنسان، وتهمش التاريخ وتتعالى عن الواقع.»[29]

فأشياع البنيوية يقدمونها على أنها: «ثورة كوبرنيكية جديدة في تاريخ العلم المعاصر ويعتبرون ظهورها بمثابة الحدث المعرفي أكثر بروزا في النصف الثاني من القرن العشرين.»[30]

و هذا يمثل «أعظم مجهود واع وعميق يتم بذله في هذا العصر من أجل تحرير العلم من رواسب الإديولوجيا والفكر الميتافيزيقي التي بقيت عالقة في سنوات عديدة في مجال العلوم الإنسانية»[31] خاصة إذا علمنا أن البنيوية بوصفها مشروعا في خطاب نقد الحداثة الغربية وإن ولدت نتيجة لكشوفات اللسانيات الحديثة في القرن العشرين، إلا أن الشيء المخفي في هذا القول: « هو كونها جاءت نتيجة لكشوفات اللسانيات الحديثة في القرن السادس عشر، أي بدءا من الفلسفة التجريبية على يد لوك Lock، و هيوم Hume مرورا إلى الفلسفة العقلية والمثالية على يد كانط Kant، وهيغل Hegel وديكارت .René Descartes، وصولا إلى الفلسفة الظاهرية عند نيتشه و هوسرل Husserl وهيدخر Heidegger...»[32]

إذ يرى هؤلاء أن الهاجس الابستمولوجي الذي يحرك البنيوية هو الحرص على احترام الدقة والموضوعية والصرامة العلمية، والهدف من وراء كل هذا هو تجديد التصور التقليدي السائد عن العالم والإنسان، وكذا الطموح إلى تأسيس علوم إنسانية واجتماعية تملك من الموضوعية والمصداقية ما لا يقل عن تلك التي تتوفر في العلوم الطبيعية، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال توفر شرطين أساسيين هما:

أ-استبعاد المظاهر الواعية والمعاشة من مجال الواقع والظواهر الاجتماعية والإنسانية، والبحث فقط عن علاقات مجردة يمكن التعبير عنها بواسطة مفاهيم دقيقة.

ب- الإلغاء التام للإنسان الذي يهيمن على الميتافيزيقا الكلاسيكية برمتها وعلى بدائلها الرائجة اليوم، ويؤكد هؤلاء الأشياع على أن هذين الشرطين يتوفران في النموذج السيميولوجي كما تقترحه اللسانيات، والأنثروبولوجيا والتحليل النفسي، وهذا النموذج يعد بمثابة العلم المرشد إلى الطريق الذي يسلك إلى تحقيق ذلك المطمح.

وتتسم البنيوية بخصائص ومميزات هي: التحولات، الشمولية، التنظيم الذاتي.

أ- الشمولية La Totalité: وتعني التماسك والتناسق الداخلي، وعلى هذا فإن الجزء لا قيمة له إلا في سياق الكل الذي ينتظمه، إن المقولة الأساسية في المنظور البنيوي: "ليس مقولة

الكينونة، بل مقولة العلاقة، والأطروحة المركزية للبنيوية هي تأكيد أسبقية العلاقة على الكينونة، وأولوية الكل على الأجزاء، فالعنصر لا قوام له ولا معنى إلا بعقده للعلاقات المكونة له، ولا سبيل إلا تعريف الوحدات إلا بعلاقاتها، فهي أشكال لا جواهر.[33]

ب- التحولات Transformations: تفيد بأن البنية نظام من التحولات لا يعرف الثبات، «فهي دائمة التحول والتغير وليست شكلا جامدا.»[34]

جـــ- الضبط الذاتي Autoréglage: وهو الذي يتكفل بوقاية البنية وحفظها حفاظا ذاتيا،ينطلق من داخل البنية، لا من خارج حدودها، وهذا ما يحفظ للبنية بقاءها، ويحقق ضربا من الانغلاق الذاتي،[35] بمعنى أن للبنيات قوانينها الخاصة التي تلاقي بعض العوامل الخارجية المستقلة عنها.

فالبنيوية ولدت ضمن المرجعية الفكرية للحداثة، حيث سعت إلى تفكيك الأسس التي أقامت عليها الحداثة بناءها الشامل مؤكدة على الذات والعقل والتاريخ، إلا أنها لم تكن صائبة حسب المشروع البنائي، «حيث أنها لا تقدم نظرة صائبة ومتكاملة، قادرة على تفسير كلي للعالم والوجود يجعلها مرة أخرى بنية للإنسان مناسبة له، لذا ركزت المعرفة البنيوية على الكون حقيقة واقعة يمكن للإنسان إدراكها ،وهكذا توجهت توجها شموليا إدماجيا يعالج العالم بأكمله بما فيه الإنسان»[36] فالبنية إذا تحمل فلسفة تمثل في طبعتها الدوغمائية نقطة الوصول لفلسفة موت الإنسان،[37] أليس هذا دليلا على أن النظام الذي سيتقوض؟ وهذا ما أكده ميشيل فوكو في قوله «إن الإنسان ليس جوهرا،وأنه لم يعد الموضوع الوحيد للمعرفة الإنسانية المجردة L'humanisme Abstrait، التي عبر عنها كتاب محدثون مثل سانت اكزبري St. Exupery ، وكتاب معاصرون مثل ألبير كامي Albert Camus، وبياتيار دو شاردان P. de Chardin باعتبارها نزعة ضيقة وناقصة لا تهتم سوى بالأسوء من الناس.[38]

وكانت للإسهامات الفرنسية دور بارز في إنضاج البنيوية، حيث عمل كلود ليفي ستروس في حقل الانتروبولوجيا الذي أعاد إلى الأذهان: « الخطوات الأساسية التي أنجزها علم اللسان

Linguistique وخاصة علم الأصوات الكلامية Phonologie»[39] كما وضعه تريتركوي، على اعتبار أن هذه المنجزات كانت هي الملهم لأبحاثه الخاصة، «فعلم الأصوات الكلامية ينتقل من الظاهرات اللغوية الواعية إلى دراسة بنيتها التحتية اللاواعية، كما يرفض أن يعامل الألفاظ على أنها كيانات مستقلة، ويتخذ أساسا لتحليله العلاقات بين الألفاظ، ويأخذ بمفهوم النسق Système ويرمي إلى اكتشاف قوانين عامة.»[40]

ومن هنا يمكن القول بأن ليفي ستروس يرى بأن البنية« نظام آلي له ميكانيزماته الخاصة التي تعمل بطريقة رمزية لا شعورية، حيث قد يصح لنا القول بأن كل بنية لا بد أن تكون بنية تحتية أو سفلية، لأنها في صميمها آلية لا شعورية، تكمن في خلق العلاقات المدركة، وتعمل عملها من وراء الوعي المباشر للأفراد»[41].

أما بالنسبة لجيل دولوز فيرى أنه «لا يمكن أن تكون ثمة بنية إلا بوجود لغة، وآية ذلك فإنه حين الحديث عن اللاشعور بوصفه بنية، وحين نتحدث عن بنية الأجسام، فإننا نعني بذلك أن للأجسام لغتها الخاصة ألا وهي لغة الأعراض والأمارات»[42].

ولهذا يجدر الأمر بنا أن نقول حسب رأي هؤلاء أن البنيوية في نظرهم هي أساس العلوم الإنسانية، هذا ما أكده كلود ليفي ستروس في مقولته المشهورة: «إما أن تكون العلوم الإنسانية بنيوية، وإما أن لا تكون علوما على الإطلاق» [43]

هكذا توصلت الألسنية قبل سائر العلوم الإنسانية الأخرى إلى بلوغ دقة تشابه دقة العلوم الطبيعية، في بنية اللغة، أو حتى في توحيد الإيديولوجيات، كما عمل لوي ألتوسير Luis Alto في الاقتصاد الماركسي الذي أعاد قراءة كتاب رأس المال، وقدم نقدا لماركس محاولا فهمه من خلال تلك الشبكة من المفاهيم المستقاة من التحليل النفسي والألسنية البنائية، دون أن يهمل دور جاك لاكان في التحليل النفسي الذي قدم بدوره قراءة مغايرة لفرويد، حيث ذهب إلى القول بأن الاعتماد على علم اللغة البنائي سوف يسهم في تقديم وصف اللاشعور بطريقة علمية، وتفهم قوانينه بالدقة اللازمة،[44] وقد استند في كل ذلك على: «المنهج اللغوي البنيوي.»[45] أما في مجال

الأدب فنجد الفرنسي رولان بارت L. Barthes الذي ينطلق في أبحاثه المبكرة من المنهج البنيوي، الذي أطاح بقدسية الكاتب – من قناعة راسخة، مفادها أن« دلالة النص في الكتابة لا تنبع من منتجه، بل من خلال علاقته بالقارئ، وهو ما مكن الكتابة من أن تعري الكاتب تماما من كل مكانة ميتافيزيقية ليتحول إلى مجرد ساحة (مفترق طرق) تلتقي وتعيد الالتقاء فيها اللغة التي هي مخزون لا نهائي من حالات التكرار والأصداء والاقتباسات، والإشارات على نحو يغدو معه القارئ حرا تماما في أن يدخل النص في أي اتجاه يشاء،ولذلك كان إعلانه التاريخي عن موت المؤلف»[46] ،الذي يقول عنه بارت بأن« هذا المؤلف شخصية حديثة النشأة وهي دون شك وليدة النزعة التجريبية الإنجليزية والعقلانية الفرنسية والإيمان بالفرد الذي واكب حركة الإصلاح الديني إلى قيمة الفرد أو الشخص البشري كما يفضل أن يقال»[47] ،وهنا يقصد بالمؤلف الذات العارفة والمتعالية التي أقرتها الفلسفة المثالية، والذات الحالة التي نادى بها الرومانسيون، وهي فكرة تمتد جذورها إلى نيتشه الذي دعا إلى موت الإله، ثم هايدجر في سعيه إلى تقويض صرح الفلسفة العقلية المثالية، وميشيل فوكو الذي أعلن صراحة موت الإنسان من خلال حفرياته.

4-موت الإنسان في فكر فوكو:

إذا كانت فكرة موت الإنسان تأسست في الفلسفة الغربية، وتدرجت عبر الأزمنة من مفكر إلى آخر لكن الذي أرسى دعائمها وأسسها هو المفكر اليساري البارز، الكاتب البنيوي التفكيكي ميشال فوكو (1984/1926) والذي يعد حلقة الوصل بين البنيوية وما بعد البنيوية، فالدارس لفكر ميشيل فوكو يلاحظ أن فكره شهد عدة نقلات فكرية فهو بدأ بنيويا وانتهى تفكيكيا، ذلك لكون بدايته الفكرية قد تأثرت أساسا بالمدرسة البنيوية الفرنسية التي هيمنت على الحياة الثقافية الفرنسية في الخمسينيات وبداية الستينيات، وقد «حاول في هذه الفترة ابتكار منهج فكري خاص وهو الأركولوجيا»[48]، وقد اهتم ميشال فوكو بمفهوم الخطاب والسلطة والقوة، إذ يرى أن الخطابات ترتبط بقوة المؤسسات والمعارف العلمية، بمعنى أن المعارف في عصر ما تشكل

خطابا يتضمن قواعد معينة يتعارف عليها المجتمع، فشكل قوته وسلطته الحقيقية، وبتعبير آخر فإن لكل مجتمع قوته وسلطته، ويتم التعبير عن تلك السلطات بالخطاب والمعرفة.

لقد أطلق فوكو حكمه المتعلقة بموت الإنسان حين يقول: «ومع ذلك هناك شيء واحد أكيد، وهو أن الإنسان ليس المشكلة الأقدم، أو الأكثر ثباتا التي طرحت على الفكر الإنساني، فإذا أخذنا فترة زمنية قصيرة نسبيا وحيزا جغرافيا محددا كما هو الشأن بالنسبة للثقافة الأوروبية منذ القرن السادس عشر، فإننا سنتأكد في إطارها من أن الإنسان اختراع حديث العهد... والواقع أن من بين كل الطفرات العديدة التي أثرت على معرفة الأشياء ونظامها وعلى معرفة الهويات والاختلاف والخصائص، والمعادلات والأشياء، وباختصار في مركز كل حلقات هذا التاريخ العميق للواحد ذاته هناك طفرة واحدة ابتدأت منذ قرن ونصف القرن والتي هي الآن في طورها النهائي، هي التي سمحت بظهور شكل أو هيئة الإنسان وعموما فالإنسان ليس إلا اختراعا تبين لنا اركولوجيا فكرنا بكل سهولة تاريخ ولا تاريخ ولا دلالة، وربما نهايته الوشيكة».[49]

لقد تأثر فوكو تأثرا كبيرا نيتشه وبفكره، واعتبره واحدا من الرموز القوية في الفكر الغربي، وأكد على أنه الأهم من بين كل الفلاسفة الحداثيين، فقد دفع بالتساؤل القديم حول ماهية الإله والإنسان إلى أقصى درجاته، إذ تخطى الإنسان وأعلن موت الإله وعوض الإنسان العادي الضعيف بالإنسان الأعلى القوي الذي يمكنه أن يحطم بإرادته جميع القيم المندثرة ويجعل لنفسه قيما تناسب طموحه وإرادته وفي هذا المجال يقول ديكارت: إن إعلان موت الإله عند نيتشه الذي أصر على عدم جعل الإله ضامنا له من زيغ الشيطان« وهكذا يكون نيتشه بقتله للإله يكون قد قتل الإنسان أيضا... حيث يظهر أن موت الإله وموت آخر إنسان في هذا العالم مرتبطان ببعضهما»[50].

ويرى فوكو أن الإنسان في القرن العشرين يموت في اليوم الواحد عدة مرات، فهو يعاني من الأنظمة السياسية الغربية والشرقية على حد سواء، والتي يحاول كل منها أن يمرر بضاعته الفاسدة تحت غطاء الإنسانية[51] كما يعاني الإنسان في ذلك الزمان من ويلات الحروب ووسائل الإبادة الجماعية في بقاع متعددة من العالم، ويعاني أيضا من سيطرة التكنولوجيا والتقنية والتقدم الصناعي

الهائل، خاصة وأنها لم تكن مشروعا بريئا، لكونها تضع الشعوب الغربية أمام تمام الميتافيزيقا، واستيفاء إمكاناتها الثاوية، بل إن التقنية المعاصرة حسب هايدجر مارتن: «تسوق الغرب إلى نحو من العماية غريب ونادر وتزج به في عدمية كوكبية لا خلاص من أحابيلها، وتخسف به في هاوية لا عديل لها.»[52] وفي هذا الصدد يقول هايدجر لاهجا بلسان الشعب الألماني: «إننا مشدودون بين فكي ملزمة، وإن شعبنا يكاد يتحمل ضغط هذه الملزمة، الأعنف من نوعها، ومن جهة هاهو الشعب يتموقع في الوسط.»[53] لقد عايش هايديجر عن كثب الحرب الباردة، وعايش خلال هذه الحرب الخوف الأوروبي الذي يشبه إلى حد المس من الجنون، وهذا خوفا من قيام حرب تكنولوجية لا تبقي ولا تذر، وكانت هذه المظاهر تقوي عند الإنسان الغربي (الأوروبي) الشعور حينئذ بأن: «المشروع الحضاري والثقافي الغربي آيل للزوال والتشظي وأن أوروبا الأنطوتاريخية مهددة في ماهيتها بكارثة الدمار التكنولوجي والنووي،»[54] وبهذا يكون مصير هذا الإنسان الفناء والزوال بسبب هذه التقنية.

ويمكن القول إن الأحداث التي عرفها العالم، خاصة ما بعد الحرب العالمية الثانية،والحرب الباردة، وثورة الطلاب في ماي 1968 بفرنسا، كل هذه الأحداث لعبت دورا بارزا في صياغة التشكيلات الفكرية والفلسفية، ومن هنا قتلت البنيوية وأشياعها الإنسان، وأراقوا دمه، كما كانت البنيوية تتغذى على واقع مأزوم بعدما اتجهت حدتها إلى نسف الوجودية من جذورها: «حين اعتبرت أن الإنسان ليس موضوعا على الإطلاق»[55].

وعليه ومهما يكن المسوغ الذي لأجله تم الإعلان عن موت الإله أو موت الإنسان والمؤلف، فإن الذي لا شك فيه أن هذه الدعاوي «أوقعت الإنسان الغربي ودفعت به إلى الوقوع في شراك وأحابيل الشك والعدمية، حيث أصبح الفكر الغربي غارقا في وحل فوضى التفسير، وغياب المعنى،»[56] وتحول الحياة إلى عالم لا متناهي الرغبات، عالم المتعة والشهوة، حيث غاب كل جميل، وحل محله مبدأ اللذة، ليفقد الإنسان الرغبة في الحياة ومن ذلك يعلن عن موته وانتحاره، وهكذا يكشف الغرب عن وجهه الحقيقي حيث يكون الخاسر الأكبر هو الإنسان.

الهوامـــش

1) – عمر مهيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 84.

2) – نفسه، ص 84.

3) – عبد الوهاب جعفر، النبيوية بين العلم والفلسفة عند فوكو، دار المعرفة، 1978، ص 143

4) – محمد سالم سعد الله، الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، دار الحوار سوريا، ط1، 2007، 250.

5) – محمود بابا عمي، دور العالم في عصر ما بعد الحداثة: مقاربة في الفعل الحضاري، رسالة المسجد، عدد 1، الجزائر، 1015، ص 18.

6) – نفسه: ص 18.

7) – عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 89.

8) – Annie Guedez : Foucault édition universitaire, Psycho thèque, Paris, 1972, page 54.

9) – عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 88.

10) – نفسه، ص 89.

11) – علي شريعتي، العودة إلى الذات: الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1986، ص 247.

12) – محمود منقد الهاشمي، الكارثة المنتظرة: التيارات الأصولية في الفكر المعاصر في كتاب العنف الأصولي، نواب الأرض والسماء، رياض الرايس للكتب، لندن، 1995، ص 260.

13) – منصف بوزفور، حديث الإنسان في الأنتروبولوجيا والفلسفة والتحليل النفسي، مقامات للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 479.

14) – محمد أزراح، مقال منشور في جريدة الشروق اليومي، عدد 4571، الجزائر، 2014، ص 23.

15) – روحية قارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة جابر عصفور، دار الطليعة للنشر، لبنان، ط 1، 1979، ص 9.

16) – محمد سبيلا، التحولات الفكرية الكبرى للحداثة، مساراتها الابسيمولوجية ودلالاتها الفلسفية، مجلة فكر ونقد، المغرب، 1997، ص 38.

17) – عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكوين والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص 58.

18) – منصف بوزفور، مرجع سابق، ص 479.

19) – مادان ساروب، دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، ترجمة: خميسي بوغرارة، منشورات مخبر الترجمة في اللسانيات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003، ص 18

20) – فيصل عباس، اغتراب الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط1، 2008، ص 204.

21) – نفسه، نفس الصفحة، 204.

22) – نفسه، ص 204.

23)- Michel Seres, Thanatocratie Critique n° 289, Mars 1972, page 177.

24)- François Chatelet, Chronique des Idées Perdues: Op Cit, page 122.

25) – روجي جارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة جورج طرابلسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1981، ص 5.

26) – نفسه، الصفحة نفسها.

27) – نيتشه، هذا الإنسان، ص 8.

28) – فادي عاصلة، موت الإنسان في فلسفة ميشال فوكو، مقال منشور في الشبكة العنكبوتية.

29) – نفسه.

30) – عبد الرزاق الراوي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي، هيدجر، ستروس، فوكو، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص 17.

31) – عبد الرزاق الدواي، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي، هيدجر، ستروس، فوكو، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص 17.

32) – عبد الغني بازة، المسارات الابستيمولوجية للبنيوية، قراءة في الأصول المعرفية، مقال، ص 52.

33) – يوسف فغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية ناشرون، الجزائر، ص 121.

34) – روجيه غارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان.

35) – إبراهيم زكريا، مشكلة البنية.

36) – عبد الكريم درويش، فاعلية القارئ في إنتاج النص، المرايا اللامتناهية، مجلة الكرمل، عدد 63، 2000، ص 153.

37) – روجيه جارودي، البنيوية فلسفة موت الإنسان، مصدر سابق.

38) – عمر مهيل، مرجع سابق، ص 89.

39) - نفسه، ص 89.

40) - نفسه، ص 21.

41) - زكريا إبراهيم، مشكلات فلسفية، مشكلة البنية، مكتبة مصر، دون ط، دون تاريخ، ص 33.

42) - نفسه، ص 34.

43) - نفسه، ص 37.

44) - صلاح فظل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987، 85.

45) - http://www.colorado.edu/english?ENGL2012/pages/lacan.htm Jacqus Lacan.

46) - المصطفي عمراني، رولات بارت من موت المؤلف إلى حرية القارئ، مجلة البيان، عدد 456، المغرب، 2006، ص 52.

47) - رامال صلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1991، ص 129.

48) - باسم علي خريسان، ما بعد الحداثة، دراسة في المشروع الثقافي الغربي الغربي، دار الفكر، دمشق، 2006، ص 98.

49) - عمر مهيل، مرجع سابق، ص 89.

50) - نفسه، ص 89.

51) - La Quainzaine Littéraire, du 15 Mai, 1966, page 14.

52) - Martin Heidigger : Introduction a le Metaphisique, Trad. G Kahn 2ème ed, p

53) - عمر مهيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، مرجع سابق، ص 89.

54) - محمد الشيكر، هايدجر وسؤال الحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص 134.

55) - سافروف، من فلسفة الوجود إلى البنيوية، ص 168.

56) - عبد الغني بارة، المسارات الاستيمولوجية للبنيوية، قراءة في الأصول المعرفية، مقال.